السلفيون وفقه الدليل

الأستاذ منير الإبراهيمي

السلفية

وقفت على منشور تداوله بعض الأفاضل من السلفيين مقرين لمحتواه؛ غافلين عن تهافت فحواه؛ فسارعت ببيان ما فيه من خلل، وما اعتراه من خطل، وما يدعو إليه من زلل.

ونص المنشور هو: «فتأمل يا صاحب فقه الدليل! جاءت امرأة تسأل «شيخًا» عن مسألة، فقال لها: هل تريدين ان افتيك بقول مالك أم بكتاب الله وسنة رسوله!! فقالت: افتني بقول مالك؛ فهو أعلم بكتاب الله وسنة رسوله منك! فبهت الذي جهل! ما أشبه الليلة بالبارحة!». أ.هـ.

قلت متسائلًا:

هل فهم صاحب فقه الدليل -كذا- خارج عن فهم الصحابة الكرام، والأئمة الأعلام: أبا حنيفة النعمان، ومالك، والشافعي، وابن حنبل رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا؟

الجواب: قطعًا لا؛ بل السلفي -صاحب فقه الدليل- بفهم الأئمة الأعلام يدلل، وعلى أصولهم يعول، وبقواعدهم يؤصل، ومن اختياراتهم ينقل.

فليت شعري:

ما سبب هذا التشغيب من متعصبة المذاهب؟

وممن انتكس عن المنهج السلفي المنتصر الغالب؟

الذين صاروا يحاربون الفقه السلفي؛ الذي مبناه على الكتاب والسنة وفهم الصحابة أرباب المواهب؟

إن هؤلاء المتعصبة يريدون منا الرجوع إلى التعصب المذموم والتقليد المشؤوم، الذي أدى إلى ما نحن فيه من ذل يشهد عليه القريب والبعيد.

وحال هؤلاء كحال من ذم الله تعالى قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

فأقول: وصف صاحب فقه الدليل بالجهل هو عين الجهل، وعين التعصب للأقوال، وعين تقليد المرء دينه الرجال، وقد نهانا عن هذا أئمة السلف، وحذر منه المحققون من أعلام الخلف.

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إياكم والاستنان بالرجال؛ وإن كنتم لابد فاعلين فبالأموات لا بالأحياء»؛ يعني: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ورحم الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «كنا نعد الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام؛ فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال».

وقال الإمام ابن خويز منداد المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائلة عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، و الاتباع: ما ثبت عليه حجة».

وقال في موضع آخر من كتابه: «... والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب الدليل عليك اتباع قوله فأنت متبعه، والاتباع في الدين مسوغ، والتقليد ممنوع».

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس كلما قال رجل قولًا -وإن كان له فضل- يتبع عليه؛ لقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة؛ كمثل حاطب ليل: يحمل حزمة حطب، وفيه أفعى؛ تلدغه وهو لا يدري».

وقال الإمام أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة: «لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا؟».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير».

وقال -أيضا-: «لا تقلدني؛ ولا تقلد مالكًا، ولا الثوري، ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا».

وللاستزادة؛ ينظر كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: باب القول في التقليد وانقسامه فصل في التقليد والاتباع في الدين.

فكيف -بعد هذا- يكون من يتفقه بالدليل جاهلًا؟

وهل الفقه إلا قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ، قال الصحابة رضي الله عنهم؟

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العلم قال الله قال رسوله

قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة

بين الرسول وبين رأي فقيه

ولابد من التنبيه: أن المفتي أو الناقل للفتوى والمجيب المتبع للدليل؛ لا يجوز له التقليد، ولا أن يأخذ بقول العالم دون معرفة دليله؛ بل الواجب عليه أن يكون متبعًا لا مقلدًا؛ فينظر في أدلة المجتهدين، فيختار قول من كان منهم أسعد بالدليل.

والواجب عليه -أيضًا-: ربط السائلين؛ بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه الأمين ﷺ وفهم الصحابة المكرمين.

ولا ينبغي لمن يجيب أن يخير السائل بين قول الإمام مالك وغيره من الأئمة وبين حكم الله في الكتاب والسنة؟ لأن في ذلك تهوين من شأن الكتاب والسنة في قلوب العوام، وفيه الدعوة إلى التقليد الذي لا يحل إلا للمضطر أو الجاهل بأدلة الأحكام.

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد».

وقال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أبو عبيد يذاكرني بالمسائل، فأجبته يومًا في مسألة؛ فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة.

فقلت له: أيها القاضي أو كل ما قاله أبو حنيفة أقول به.

قال: ما ظننتك إلا مقلدًا.

فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي؟!

فقال لي: أو غبي!

فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلًا».

تأمل: «وهل يقلد إلا غبي أو عصبي»؟!

وقد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمن ترك قول الصحابي عمر بن الخطاب لقول التابعي الكبير إبراهيم النخعي؛ فقال: «يستتاب».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
«ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد.
فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنة والجماعة».
«مجموع الفتاوى» (١٠/٢٦٢).

فكيف –يا رعاك الله– بمن ترك قول رسول الله ﷺ لقول عالم كيفما كان مقدار علمه؟!

أضيف:

أن المجيب لابد له من التبصر في حال السائل؛ فإن سأله السائل –وكان من العوام– عن قول علم من الأعلام يثق بقوله؛ فهنا لا حرج من أن يجيبه بقوله، ويقتصر على فهمه.؛ إلا إذا كان قول المسؤول عن قوله وفهمه يعارض صريح الدليل المعتبر؛ فمن النصح الواجب عندها الإحالة على الدليل الشرعي مع إظهار علو مكانة العالم الذي خالفناه، وإعذاره دفعا للتشويش والتشغيب.

مع التقرير: أن العامي ليس له مذهب، فلا يحق له أن يقول: أنا حنفي، أو مالكي، أو شافعي، أو حنبلي! وإنما عليه أن يسأل من يجده أمامه من أهل العلم، ولا يحل له تقليد الجاهل أو المبتدع؛ بل يجب عليه أن يجتهد في اختيار العالم المعروف بالعلم والتقوى والتمسك بالسنة، ويجتهد في أقوال أهل العلم ويعمل بما ترجح لديه منها؛ كما قرره العلامة الشاطبي في «الموافقات».

قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن هذا العلم دين؛ فلينظر أحدكم عمن يأخذ دينه».

وأما إن كان السائل ممن يفهم الحجة والبرهان، فلابد حينئذ من ربطه بالكتاب وسنة النبي العدنان ﷺ.

فانتبه أيها السلفي: أن تصير بوقًا للأدعياء، ومزمورًا من مزامير المتعصبة الأغبياء، وناقلًا لتخاريف المبتدعة الأشقياء، ومحققًا لمخطط الكفرة الأعداء.

فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به المقلدة والمتعصبة؛ وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلًا.

وظيفة علماء الشرع

العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله

إن علماء القرون المتأخرة ركبتهم عادة من الزهو الكاذب والدعوى الفارغة، فجرتهم إلى آداب خصوصية؛ منها: أنهم يلزمون بيوتهم أو مساجدهم كما يلزم التاجر متجره، وينتظرون أن يأتيهم الناس فيعلموهم، فإذا لم يأتهم أحد تسخطوا على الزمان وعلى الناس.

ويتوكؤون في ذلك على كلمة: إن صدقت في زمان؛ فإنها لا تصدق في كل زمان؛ وهي: «إن العلم يؤتى ولا يأتي».

وإنما تصدق هذه الكلمة في علم غير علم الدين.

وإنما تصدق بالنسبة إليه في جيل عرف قيمة العلم؛ فهو يسعى إليه.

أما في زمننا وما قبله بقرون؛ فإن التعليم والإرشاد والتذكير أصبحت بابًا من أبواب الجهاد، والجهاد لا يكون في البيوت وزوايا المساجد، وإنما يكون في الميادين حيث يلتقي العدو بالعدو كفاحًا.

وقد قال لي بعض هؤلاء -وأنا أحاوره في هذا النوع من الجهاد، وأعتب عليه تقصيره فيه-:

إن هذه الكلمة قالها مالك للرشيد.

فقلت له: «إن هذا قياس مع الفارق في الزمان والعالم والمتعلم:

أما زمانك هذا؛ فإن هذه الخلة منك ومن مشايخك ومشايخهم أدت بالإسلام إلى الضياع وبالمسلمين إلى الهلاك.

فالشبهات التي ترد على العوام لا تجد من يطردها عن عقولهم ما دام القسيسون والأحبار أقرب إليهم

